

مصر أثناء غييبته لما يعلم من عدم فطنته ونباهته. ولكن حدث ذات مرة أن ترك له حكم مصر منفرداً، فتشوش عليه الأمر، وأتى في حكوماته بين الناس من الحمق والغفلة ما جعل أكبر كاتب فكاهة لعصره وهو ابن ممتى يضع عليه الحكايات المضحكة، وقد نسقها في الكتاب الذي نحن بصدده الآن وسماه هذا الاسم الطريف «كتاب الفاشوش في حكم قراقوش» وإنه ليستهل به بقوله:

"إننى لما رأيت عقل بهاء الدين قراقوش محزومة فاشوش، قد أتلف الأمة، والله يكشف عنهم كل غمة، لا يقتدى بعالم، ولا يعرف المظلوم من الظالم، والشكية عنده لمن سبق، ولا يهتدى لمن صدق، ولا يقدر أحد من عظم منزلته أن يرد كلمته، ويشتط اشتطاط الشيطان، ويحكم حكماً ما أنزل الله به من سلطان، صنفت هذا الكتاب لصالح الدين، عسى أن يريح منه المسلمين".

ويذهب بعض المستشرقين، وهو الأستاذ كازانوف الذى عنى ببحث هذا الكتاب ونشره، إلى فكرة طريفة خلاصتها أن ابن ممتى لم يؤلف هذا الكتاب لغرض الضحك فقط عن غفلة قراقوش وغبائه، بل ألفه سخطاً على الدولة الجديدة التى خلفت الدولة الفاطمية، وهى دولة كانت تنعصب على القبط عكس دولة الفاطميين، فأراد أن يكيد لها بتعقب أحد حكامها تعقباً مضحكاً، أو قل تعقباً ساخراً، يسخر أثناءه من صلاح الدين وما كان من طغيانه هو وحاشيته أو بطانته. وهى فكرة قيمة، وإن كان يضعف منها أن ابن ممتى لم يكن نصرانياً حين تأليفه هذا الكتاب، أو على الأقل ليس بين أيدينا دليل على أنه كان نصرانياً حينئذ، إذ كان قد أسلم. ومع ذلك فرمى كان أسلم على ضغن وموجدة. ومن يدري لعل المصريين جميعاً قبطاً ومسلمين كانوا يتعصبون على دولة صلاح الدين، وخاصة أنه ألغى كثيراً من أعيادهم الفاطمية، وأيضاً فإنه أتعبهم فى غاراته وحروبه الصليبية. ويظهر أن بطانته كانت كلها أجنبية أو